"المشاريع الصليبية لبابوية أفينيون تجاه سلطنة المماليك في مصر والشام (١٣٠٥- ١٣٧٨م/٧٠٥- ٧٨٠ هـ) "

إعـــــداد

د / عماد أحمد حامد

باحث دكتوارة / تاريخ

مقدمة:

كما هو معلوم أن التحركات الصليبية عادت في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي الممتد من (١٢٩٢ ١٣٤٤م) . أما النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي الممتد من (١٣٤٤- ١٣٩٦م) فهو فترة المعارك الصليبية المتتالية في الشرق . وقد شهد هذا القرن العديد من التغيرات الأثرية التي رسمت الحدود التقليدية لمواقع الحروب الصليبية . وحتي ذلك الحين كانت الحروب المقدسة مقصورة علي الشرق الأدني – أما في أواخر العصور الوسطي – فقد بلغت آفاقاً تبعد عن الأراضي المقدسة في كل إتجاه تقريباً . وبالرغم من أن الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي كانت تفتقر إلي صفات الشجاعة والقوة والمكاسب المعنوية التي أتصفت بها الحروب الصليبية الأولي ، إلا أنها تركت تأثيرها في تاريخ البشرية.

وبالرغم من أن الهدف الرئيسي لكل الحركة الصليبية كان الإستيلاء علي الأراضي المقدسة ، فإنه يبدو أن الصليبيين في القرن الرابع عشر الميلادي قد لجأوا إلي طرق متعددة بمهاجمة مراكز كانت تبدو أكثر أهمية في الإمبراطورية الإسلامية كان من الواجب أن تضعف وتفتقر قبل أي احتلال جدي لشواطئ فلسطين . فالحروب الصليبية في ذلك القرن لم تكن ضد الأراضي المقدسة بقدر ما كانت ضد مصر والأناضول وشمال إفريقيا والبلقان .

علي أية حال ، يتناول هذا البحث الحديث عن المشاريع الصليبية لبابوية أفينيون Avignon تجاه سلطنة المماليك في مصر والشام ، حيث تحدثت فيه عن الدور الذي لعبته البابوية لشن الحروب الصليبية ضد المماليك لإسترداد بيت المقدس وذلك من خلال دعمها للمشروعات الصليبية لملوك فرنسا وقبرس.

وفي حقيقة الأمر لم تخرج فكرة القيام بحرب صليبية ضد سلطنة المماليك في مصرو الشام علي أنها ظلت حية حتي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، لأن البابوية لم تكن من القوة بمكان بحيث تستطيع تعهدها أو القيام بها ، خاصة بعد نقل المقر البابوي من روما إلي مدينة أفينيون

Avignon الواقعة علي نهر الرون Rhone بفرنسا عام ١٣٠٩م بسبب الصرع الدائر آنذاك بين فرنسا والبابوية من أجل رغبة ملوك فرنسا إجبار البابوية حتي تسمح لهم بالحصول علي أموال الكنائس الفرنسية داخل أراضيهم [١]. لكن ليس معني ذلك أن البابا كلمنت الخامس Clement V (١٣٠٥-١٣١٤م) - أول بابوات أفينيون - لم يفكر في القيام بحرب صليبية ضد المماليك ، بل أنه في حقيقة الأمر كان يفكر جدياً في ذلك الأمر، وكان يشاطره في هذا الأمر فيليب الرابع الجميل Philippe IV le Bel ملك فرنسا (١٢٨٥-١٣١٤م) [٢] .

وعن أهم الدوافع التي حدت بالبابا كلمنت الخامس للإهتمام بالحروب الصليبية ، آنذاك ، فيمكن القول أنه كان علي رأسها النداءات المتكررة التي كان قد وجهها الأسبتارية [٣] Hospitallers في جزيرة قبرس Cyprus - قبل انتقالهم إلي جزيرة رودس Rhodes- إلي كل من البابا كلمنت الخامس والملك الفرنسي فيليب الرابع الجميل [٤] .

علي أية حال ، فقد عقد البابا كلمنت الخامس مجلساً دينياً في مدينة بواتييه Poitiers الفرنسية من أجل تلك الحملة الصليبية ، ثم بعد ذلك رأي أن يستشير في أمرها كل من رئيس هيئة الداوية[٥] يعقوب دي نولي J. de Nolay، ورئيس هيئة الأسبتارية فولك دي فيلاريه Foulques de Villaret لما لهما من خبرة طويلة بشئون الشرق، فاستدعاهم البابا من جزيرة قبرس و أستقبلهما في عام ١٣٠٧م وأستلم منهما مذكرة ضمنها كل منهما وجهة نظره الخاصة [٦] .

أيضاً فقد أبدي الملك الفرنسي فيليب الرابع هو الآخر رغبته في المشاركة في تلك الحملة الصليبية ، خاصة بعدما تحمس لها البابا كلمنت الخامس ، وللأفكار التي قدمها له كل من السيدين الكبيرين للداوية

والأسبتارية ، فكل ذلك ربما أدي إلي تنشيط فكرة الحرب الصليبية في بلاط الملك الفرنسي فيليب الرابع (٧) .

وكيفما كان الأمر ، فقد سمح كلاً من ملك إنجلترا إدوارد الثاني Edward II (١٣٠٧-١٣٢٧م) وملك أراجون Aragon جيم الثاني Hayem II (١٢٩١-١٣٢٧م) لرؤساء الهيئات الدينية الأسبتارية والداوية في عام ١٣٠٩م بأن يستوردوا من بلادهما الأسلحة والخيول والمؤن اللازمة للحملة ، علي أن جميع هذه الجهود التي بذلها فولك دي فيلاريه، معززة بجهود البابا كلمنت الخامس لم تؤدِ في النهاية إلي الحملة الصليبية العامة التي أرادها ، ولم يخرج ما حدث بالفعل عن تجمع عدد من الصليبيين الذين دفعتهم حماستهم الدينية - من غير أن يحشدهم ملك أو أمير- في ميناء برنديزي ، حيث أختارهم فولك دي فيلاريه أكثرهم شرافة و أكملهم تسليحاً ، علي قدر ما أستطاعت سفنه أن تحملهم ، إلي جانب فرسان الأسبتارية الذين حشدهم فولك من بيت الهيئة في أوروبا وأقلع بهم في عام ١٣١٠م مباشرة إلي جزيرة رودس ، لكن سرعان ما لبثوا أن تسربوا منها - عندما تأكدوا أن استكمال فتحها لحساب الأسبتارية هو الهدف النهائي من هذه الحملة - من غير أن يتعاونوا معه في تحقيق هذا الهدف(٨) .

وهكذا لم يكن غريباً أن تندرج مسألة الحرب الصليبية ضد دولة المماليك ضمن أعمال المجمع الكنسي العام الذي أفتتح في ١٦ أكتوبر عام ١٣١١م بمدينة فينيا Vienna علي نهر الرون بفرنسا ، إلي جانب موضوعات دينية أخري (٩) .

وفيما يتعلق بالحرب الصليبية ضد سلطنة المماليك ، فقد عرض علي أعضاء المؤتمر مشروعان تقدم بأحدهما وليم نوجاريه William of Nogaret مستشار فيليب الرابع ملك فرنسا ، في حين تقدم بالأخر هنري الثاني لوزينان Henry II Lusignan ملك قبرس (١٢٨٥-١٣٢٤م) . وقد ركز وليم نوجاريه في مشروعه علي

وسائل إعداد الحملة العامة [١٠] . أما مشروع هنري الثاني لوزينان ملك قبرس ، فقد أهتم أكثر بالعمليات العسكرية والبحرية للحملة الصليبية[١١] .

ومهما يكن من أمر مشروعي وليم نوجاريه ، وهنري الثاني لوزينان ملك قبرس ، فإن مجمع فينيا لم يأخذ بأي منهما . وقد أراد فيليب الرابع ملك فرنسا أن يعزز مشروع مستشاره وليم نوجاريه ، فأعلن أمام المجلس الكنسي عن استعداده لقيادة حملة صليبية ضد دولة سلاطين المماليك خلال عام واحد [١٢].وعلي الرغم من كل ذلك ، فإن البابا كلمنت الخامس وأعضاء مجمع فينيا لم يوافقوا علي الجانب المالي لهذا المشروع الصليبي- وهو الهدف الحقيقي الذي رمي إليه فيليب الرابع من إعلانه عن استعداده لقيادة الحملة الصليبية - وأكتفوا فقط بالسماح للملك الفرنسي بتحصيل ضريبة العشور الصليبية علي أملاك الكنيسة في دولته ست سنوات مقابل ما يصرفه علي الحملة الصليبية المتجهة نحو الشرق[١٣].وسواء كان فيليب الرابع ملك فرنسا جاداً حين وعد بقيادة حملة صليبية ضد دولة سلاطين المماليك أم لا ، فإنه لم يفِ بنذره الصليبي ، وسرعان ما توفي في ٢٩ نوفمبر عام ١٣١٤م ، وخلفه علي عرش فرنسا أبنه لويس العاشر Louis X (١٣١٤-١٣١٦م) الذي أعلن بدوره العزم علي المضي قدماً فيما بدأ في عهد والده من استعداد للحملة الصليبية ، لكنه سرعان ما توفي هو الأخر بعد توليه العرش بعامين أثنين في ٥ يونيو عام ١٣١٦م [١٤] .

وكيفما كان الأمر ، فقد أعتلي فيليب الخامس الطويل Philippe V le long (١٣١٧- ١٣٢٢م) عرش فرنسا خلفاً لأخيه لويس العاشر ، فأعلن بمثل ما أعلن به أخوه وأبوه [١٥] وحدث أن تولي بابا جديد في أفينيون وهو البابا حنا الثاني والعشرين Jean XXII(١٣١٦- ١٣٣٤م) الذي أصدر قراراً بابوياً صادق فيه علي قرار سلفه - كلمنت الخامس - الخاص بالسماح لملك فرنسا بتحصيل ضريبة العشور الصليبية علي أملاك الكنائس الفرنسية لصالح الحملة الصليبية ، علاوة علي ذلك فإن البابا قد

سمح له بتحصيل ضريبة العشور علي جميع الدخول في مملكته عامين متتاليين وهما عام ١٣١٦م وعام ١٣١٧م (١٦)

وحسبما كان الأمر ، فبالنسبة للحملة الصليبية لفيليب الخامس ملك فرنسا ، فإن الأخير لم يلبث أن وافته المنية في عام ١٣٢٢م دون أن يفي - هو الآخر- بنذره الصليبي ، فخلفه علي العرش الفرنسي شارل الرابع الوسيم Charles IV le Bel (١٣٢٢ - ١٣٢٨م) الذي أصبح مستغرقاً في خططه الصليبية بشكل عملي في بداية حكمه ، خاصة بعدما طلب منه البابا حنا الثاني والعشرين - عقب إعتلائه عرش فرنسا في ٢٢ يوليو عام ١٣٢٢م - بأن يعجل بأخذ مشورة أهل الرأي ممن لهم دراية بشؤن الشرق لتكون له عوناً عند قيامه بقيادة الحملة الصليبية (١٧) .

و في ١٧ فبراير عام ١٣٢٣م أرسل شارل الرابع ملك فرنسا سفارة إلي البابا حنا الثاني و العشرين في أفينيون للوصول معه إلي وضع الترتيبات النهائية للحملة العامة وطرق تنفيذها ، ولتقديم اقتراح الملك الفرنسي له بأن يكون تاريخ إبحار الحملة العامة إلي الشرق هو شهر أغسطس من عام ١٣٢٤م (١٨) .

علي أية حال ، فقد وصلت سفارة الملك الفرنسي شارل الرابع إلي البابا حنا الثاني والعشرين الذي سرعان ما سأل كرادلته ليكتبوا نصائحهم له من أجل الحملة الصليبية ، بيد أنه في حقيقة الأمر كانت هناك العديد من الأسباب التي كانت تقف حجر عثرة أمام أعمال تلك الحملة ، ذلك أنه لم يكد ينتهي عام ١٣٢٣م حتي دخلت فرنسا في حالة حرب مع إنجلترا مما أدي إلي تلاشي الخطط الصليبية ، كما أن البابوية في أفينيون كانت قد حولت الحملة الصليبية ضد أعداءها في إيطاليا ، فضلا علي أن نفقات إعداد الحملة الصليبية كانت كبيرة جداً ولم تتحمل الخزانة الفرنسية أن تفي بها في موعد إقلاع الحملة (١٩) .

علاوة علي ذلك ، فإن شارل الرابع ملك فرنسا كان قد تلقي أنباء عن صلح طويل الأجل مدته خمس عشرة سنة بين أرمينيا الصغري وسلطان مصر المملوكي الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة(٧٠٩ -٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) خاصة بعد الإغارات التي كان يشنها المماليك علي مملكة أرمينيا لصغري ، فثبطت همته شارل الرابع فيما يتعلق بالحرب الصليبية[٢٠].هذا في حين أن البابا حنا الثاني والعشرين قد قام من جانبه في سنة ١٣٢٣م بإعطاء الأوامر لـ هيو الرابع ملك قبرس (١٣٠١م -١٣٢٥م) بأن يعمل علي قطع الطرق التجارية في البحر المتوسط أمام أي سفن تمارس التجارة مع التجار المصريين والدولة المملوكية تلك الفترة وذلك بإعطائهم حق القرصنة علي هذه السفن[٢١].

ومن الجدير بالذكر هنا، أن البابا حنا الثاني والعشرين ، ربما بالإتفاق مع الملك الفرنسي شارل الرابع ، كان قد أرسل سفارة إلي مصر تحمل تهديداً إلي الملك الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م ، كان مضمونها أنه إذا أحسن إلي من في مملكته - أي الناصر محمد - من أهل الذمة ، أحسنوا إلي من في بلادهم من المسلمين [٢٢].

علي أية حال ، توفي شارل الرابع ملك فرنسا في ٢١ يناير عام ١٣٢٨م وخلفه علي العرش ابن عمه فيليب السادس فالوا Philippe VI Valois (١٣٢٨-١٣٥٠م) في ٢٩ مايو عام ١٣٢٨م وأعلن بأن سياسته هي استئناف الجهود التي بذلها أسلافه من أجل مواصلة الحرب الصليبية ضد المماليك في مصر والشام [٢٣].

بعد ذلك أوفد فيليب السادس رئيس أساقفة روين Rouen بيير روجر Pierre Roger إلي البابا حنا الثاني والعشرين في شهر فبراير عام ١٣٣٢م لكي يعرض عليه مشروعه الصليبي ، وبعدما وصل بيير روجر إلي أفينيون ، أعلن البابا

وأمام كرادلته بأن الملك الفرنسي فيليب السادس دي فالوا سوف يغادر مملكته متجها صوب الشرق في شهر أغسطس عام ١٣٣٤م[٢٤] .

وبالتالي وافق البابا حنا الثاني والعشرين علي مشروع الحملة الصليبية للملك الفرنسي فيليب السادس فالوا ، وهنأه علي إقدامه وحماسته . ولمساعدته في الإعداد لتلك الحملة ، فقد سمح له بمقتضي مرسومين أصدرهما كان أولهما في ٦ يونيه عام ١٣٣٤م ، حيث سمح له فيه بتحصيل ضريبة العشور الصليبية في فرنسا عامين ، أما المرسوم الثاني فقد سمح فيه البابا لفيليب السادس بتحصيل ضريبة العشور علي أملاك الكنيسة في بلاده ست سنوات [٢٥].

ولكي يعبر الملك الفرنسي فيليب السادس دي فالوا عن صدق نيته للبابا في القيام بالحملة الصليبية ، فقد أتصل بالبندقية في ١٨ نوفمبر عام ١٣٣١م ، وطلب منها أن تساعده في نقل جيش الحملة إلي الديار المقدسة . غير أن البندقية - بمساعدة الأسبتارية - نجحت في النهاية في إقناع الملك الفرنسي فيليب السادس والبابا حنا الثاني والعشرين بتحويل جهودهما الصليبية إلي الأتراك العثمانيين بدلا من المماليك في مصر والشام [٢٦].

بيد أنه ما إن أكمل فيليب السادس استعداده للقيام بدوره المتفق عليه في الحملة وهم بإصدار الأوامر إلي قواته بالإقلاع إلي الشرق ، حتي فوجي بتأهب أعدائه الإنجليز للهجوم علي مملكته ، فقرر تأجيل العمل الصليبي والتفرغ لهم [٢٧].

وبذلك يمكن القول أن الحرب الأنجلو - فرنسية حالت مرة أخري دون أتمام مشروع الصليبيين، لا سيما وأن ذلك الأمر قد وافق وفاة البابا حنا الثاني والعشرين في ٢٤ ديسمبر عام ١٣٣٤م [٢٨].

في حقيقة الأمر ، فإن الحرب بين إنجلترا وفرنسا كانت قد تركت أثراً فعلًا في حماسة البابا بندكت الثاني عشر Benedict XII (١٣٣٤- ١٣٤٢م) الصليبية ضد المسلمين عرباً وتركاً ، فطلب من فيليب السادس دي فالوا ملك فرنسا في ١٣ مارس عام ١٣٣٦م عدم العودة لها ، كما أمره بوقف جمع ضريبة العشور التي كان سلفه - البابا حنا الثاني والعشرين - قد أمر بها من أجل الحملة الصليبية إلي الأراضي المقدسة ، وأن يرد ما جمع منها إلي أصحابها [٢٩].

علي أية حال ، ظلت الحروب الصليبية متوقفة ضد سلطنة المماليك في مصر والشام وتحولت إلي الأتراك العثمانيين في آسيا الصغري حتي عام ١٣٦٢م ، وهو العام الذي قرر فيه بطرس الأول لوزينان Pierre I de Lusignan ملك قبرس (١٣٥٩- ١٣٦٩م) القيام بحملته الصليبية ضد المماليك ، وفي هذا الصدد عزم علي القيام برحلة إلي غرب أوروبا لإقناع ملوكها وأمرائها بأهمية مشروعه الصليبي، وقد أستغرقت تلك الرحلة ثلاث سنوات من عام ١٣٦٢م وحتي عام ١٣٦٥م [٣٠].

وقد كان من بين المدن التي مر بها الملك القبرسي بطرس الأول لوزينان مدينة أفينيون ومقر البابوية التي وصلها في ٢٩ مارس عام ١٣٦٣م ، وتقابل فيها مع كل من : حنا الثاني Jean II ملك فرنسا (١٣٥٠- ١٣٦٤م) والبابا أوربان الخامس Urban V (١٣٦٢- ١٣٧٠م) وقد أعلن الأخير في وجودهما قيام الحرب الصليبية ضد المسلمين في ٤ فبراير عام ١٣٦٣م ، وقام بتعيين الكاردينال تاليران دي بيرورد Talleyrand de Periord نائبا بابويا للحملة الصليبية المزمع القيام بها ، ثم قرر البابا أن يكون موعد قيامها في الأول من مارس عام ١٣٦٥م [٣١] .

وفي تلك الأثناء ، بذل كلا من : البابا أوربان الخامس، و بيير دي توماس[٣٢] Pierre de Thomas ، وفيليب دي ميزير Philippe de Mezieres (١٣٢٧- ١٤٠٥م) صديق ومستشار بطرس الأول لوزينان ملك قبرس، كل ما في

وسعهم من أجل عقد السلام بين الأمراء والملوك الكاثوليك المتنازعين في الغرب الأوروبي، كما عملوا علي دعوتهم للمشاركة في تلك الحملة الصليبية (٣٣).

وفي الأطار ذاته ، كتب البابا أوربان الخامس خطاباً في ٣١ مارس عام ١٣٦٣م إلي الملك الفرنسي حنا الثاني ودعاه للمشاركة في تلك الحملة الصليبية المتجهة للشرق (٣٤) . وفي نفس اليوم - أي يوم ٣١ مارس عام ١٣٦٣م - أرسل البابا رسالة خاصة إلي رئيس ساقفة ريمز Rheims يناشده فيها هو وأتباعه بأن يقوموا بجمع ضريبة العشور من داخل الكنيسة في بلادهم للأمراء والملوك الذين سوف يشاركون بطرس الأول لوزينان في حملته (٣٥)

كما بعث البابا أوربان الخامس أيضاً رسولين من عنده ليقومان بحث المواطنين في الغرب الأوروبي علي المشاركة في الحملة ، وأرسل خطاباً أخر في ١٦ إبريل عام ١٣٦٣م ناشد فيه ملك نافار Navarre بتوخي السلام مع كل من حماه حنا الثاني ملك فرنسا ومع ملك أراجون Aragon حتي يكون الطريق ممهداً أمام الصليبيين أثناء ذهابهم إلي الشرق. كذلك فقد أرسل البابا عدة خطابات أخري في ٢٥ مايو عام ١٣٦٣م من أجل دعوة كل العالم المسيحي للمشاركة في تلك الحملة الصليبية التي كانت قد نقلت أخبارها إلي الإمبراطورية الرومانية المقدسة - ألمانيا - وإلي ملوك :إنجلترا، والمجر - هنغاريا- Hungaria، وبوهيميا Bohemia ،وإلي دوقات : لوكسمبورج Luxemburg ، وأوستريا Austria وساكسوني Saxony وبافاريا Bavaria (٣٦).

وفي الوقت نفسه ، فقد أقترح دوج البندقية لورانزو شيلسي Lorenzo Celsi (١٣٦٣- ١٣٦٥م) علي البابا أوربان الخامس إعداد السفن اللازمة من أجل العبور العام إلي الشرق ، بيد أن البابا ، علي ما يبدو ، كان يشك في مدي صدق إيمان البندقية بالقضية الصليبية ، فقد كان البابا يدرك تمام الإدراك أن للبنادقة هدفاً تجارياً

محضاً من تلك الحملة الصليبية أكثر من الهدف الديني- الصليبي- وسوف يصبح ذلك الهدف عندهم أكثر من الباعث الديني (٣٧).

كما كتب البابا أوربان الخامس خطابا أخر إلي لويس الكبير Louis the Great ملك المجر (١٣٤٢-١٣٨٢م) يشرح له فيه الوسائل التي يمكن أن يساعد بها الحملة الصليبية المتجهة إلي الشرق ، كما أصدر مرسوما بابويا - في الوقت عينه - إلي كل قادة ورجال الجيش في فرنسا من أجل مشاركتهم في تلك الحرب الصليبية ، غير أنهم هؤلاء الأخيرين لم يلبوا نداء البابا تلبية جدية ؛ لأنهم كانوا في حالة حرب مع إنجلترا وقتذاك (٣٨).

ولما كان العمل الصليبي في الشرق يقع علي عاتق فرسان الأسبتارية في جزيرة رودس، فإن البابا أوربان الخامس أراد استخدامهم لمساعدته في جمع الأموال اللازمة لتمويل الحملة الصليبية ، فأعطي السلطة العليا لرئيسهم روجر دي بينز Roger de Pins (١٣٥٥-١٣٦٥م) لجمع الأموال اللازمة من بلاده ، غير أنه ظل غير مبال بموقف البابا، وفي النهية قام الأخير بتهديده بتوقيع عقوبة الحرمان الكنسي عليه إذا لم يوافق علي ذلك (٣٩).

وفي ١٤ إبريل عام ١٣٦٤م ، كتب البابا أوربان الخامس إلي سفيريه في إيطاليا ألبورنوز Albornoz أسقف سابينا Sabina وأندروين دي لا روش Androin de la Roche كاردينال سانت مارسيليوس St. Marcellus لكي يوصيهما بأن يكونا علي يقين من صدق نية روبرت وود هاوس Robert Woodhouse رسول المجموعة الإنجليزية في بيزا Pisa ، التي أبدت رغبتها في المشاركة في تلك الحملة الصليبية . كما أقترح البابا أيضاً أن المساعدات المالية يجب أن تجمع لهم - أي الجماعة الإنجليزية في إيطاليا - من أراضي إيطاليا (٤٠).

كما أرسل البابا في ١٧ فبراير عام ١٣٦٤م رسالتين إلي لورينزو شيلسي دوج البندقية وجبرائيل أدرنو Gabriele Adorno دوج جنوة Genoa يحثهما علي سرعة إمداد الصليبيين بالسفن اللازمة لعبورهم إلي الشرق . وفي ٢٠ إبريل عام ١٣٦٤م أرسل البابا خطاباً أخر إلي توماس دي يوفورد Thomas de Ufford- فارس وقائد جماعة إنجليزية أخري في إيطاليا - يمتدح فيه حماسته من أجل الحملة الصليبية ، ويحث جماعته علي إتباع مثاله الطيب ، ثم أوصي البابا أوربان الخامس وليم دي لابولي William de la Pole سيد قلعة آشبي Ashpy - وهو الفارس الذي أخذ الصليب من يده في أفينيون وأقترح عليه المشاركة في الحملة الصليبية - بالمرور عبر مملكة نابولي Naples في الطريق إلي مدينة أوترانتو Otranto الإيطالية من أجل ركوب السفن المتجهة صوب الشرق ، كما حث البابا جوانا الأولي Joanna I ملكة نابولي (١٣٤٣- ١٣٨١م) بأن تمد الصليبيين - أثناء مرورهم عبر مملكتها - بالأطعمة والمؤن اللازمة لهم ، وكتب كذلك خطابين أخرين إلي كل من روبرت Robert الإمبراطور الأسمي للقسطنطينية وإلي كونت ليكي Lecce من أجل نفس الغرض (٤١).

فضلاً عن ذلك ، وفي ٢٤ مايو عام ١٣٦٤م كتب البابا أوربان الخامس ثلاثة خطابات أخري إلي كل من : إيمار دي بكتافيا Aymar de Pictavia كونت فلانتيواز Valentinois ، و إلي رالف سيد لوبيل Ralph Sir de Louppy وحاكم إمارة دوفين Dauphine ، وإلي أماديوس السادس Amadeus VI كونت سافوي Savoy (١٣٤٣- ١٣٨٣م) لدعوتهم جميعاً من أجل المشاركة في الحملة الصليبية المزمع القيام بها ، ملتمساً منهم تأمين الطريق لـ توماس بوشان Thomas Beauchamp إيرل ويرويك Warwick وجماعته الإنجليزية وهم في طريقهم إلي الأراضي المقدسة (٤٢).

ومهما يكن من أمر البابا أوربان الخامس وجهوده في الدعوة إلي هذه الحملة الصليبية ، فإن بطرس الأول لوزينان ملك قبرس قد توجه بحملته إلي مدينة الإسكندرية وتمكن من غزوها ودخولها في ١٠ أكتوبر عام ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ وعاث فيها هو ورجاله فساداً ، إذ قتلوا كل من صادفهم من الأهالي في شوارع وطرقات المدينة [٤٣] ثم عاد بعد ذلك ومعه كلاً من فيليب دي ميزير وبيير دي توماس – المندوب البابوي – إلي نيقوسا Nicosia حيث أقيم احتفالاً عظيماً ، في حين أن بيير دي توماس قد أعلن تحريم التجارة كلية مع المماليك استعداداً للقيام بحملة صليبية جديدة ضدهم [٤٤].

علي أية حال ، لم يكد يطلع البابا أوربان الخامس علي خبر استيلاء بطرس الأول لوزينان ملك قبرس علي مدينة الإسكندرية ، حتي أرسل إليه مهنئاً، كما أرسل إلي ملوك وأمراء الغرب الأوروبي يناشدهم أن يسارعوا في تقديم المساعدة إلي ملك قبرس [٤٥].

وفي الإطار ذاته ، أرسل البابا أوربان الخامس رسولاً هو أسقف كاستيللو Castello حاملاً من لدنه خطاباً إلي البندقية لكي تمنع التجارة مع السلطان المملوكي استعداداً للحملة الصليبية الجديدة المزمع القيام بها ضد المماليك في مصر والشام ، كما أرسل البابا في الوقت نفسه ، إلي أساقفة جنوة وأساقفة باركيلوني Barcelone وإيلني Elne لكي يقوموا بنفس المهام في أبرشياتهم [٤٦].

فضلاً عن ذلك ، وفي بداية شهر أكتوبر عام ١٣٦٦م ، كتب البابا أوربان الخامس عدة خطابات إلي :الإمبراطور الألماني شارل الرابع Charles IV (١٣٤٧-١٣٧٨م) ، وإلي ملوك إنجلترا ، و فرنسا ، و أراجون ، والدنمارك Denmark، وبولونيا Bologna، وإلي جوانا الأولي ملكة نابولي ، وإلي دوقات أوتراخ

Autriche ، وذلك من أجل دعوتهم للمشاركة في الحملة الصليبية بعد الانتصار الذي حققه بطرس الأول لوزينان في الإسكندرية عام ١٣٦٥م (٤٧).

وكيفما كان الأمر ، فقد أعرب عدد قليل من الملوك والأمراء عن رغبتهم في تلبية نداء البابا أوربان الخامس ، وبعد ذلك قاموا بالتوجه صوب البندقية - كما ذكر لهم البابا في الخطابات التي كان قد أرسلها لهم - لكن البندقية أعاقتهم عن المرور في البحر متجهين إلي الشرق ، وهو الأمر الذي حدا بالبابا إلي الكتابة إلي ماركو كورنارو Marco Cornaro دوج البندقية (١٣٦٥- ١٣٦٨م) آنذاك في ١٥ أكتوبر عام ١٣٦٥م ، حتي يسمح للصليبيين بالمرور وإنهاء تلك العملية السيئة التي قد تفسد وتقطع العلاقات بين جزيرة قبرس والبندقية (٤٨).

لكن ، وعلي ما يبدو ، فإن البندقية لم تستجبِ لنداء البابا أوربان الخامس وأطلقت إشاعة كاذبة - رغبة منها في إيقاف العمل الصليبي ضد المماليك نظراً لمصالحها التجارية معهم - فحواها أن الملك القبرسي بطرس الأول لوزينان، قد عقد الصلح مع السلطان المملوكي ، ولا ينوي القيام بأي حرب صليبية ضده (٤٩) ، وهو الأمر الذي دفع ببعض ملوك وأمراء الغرب الأوروبي - الذين أبدوا استعدادهم للمشاركة في تلك الحملة الصليبية - إلي الإنصراف عنها (٥٠)

علي أية حال ، بذل البابا أوربان الخامس قصاري جهده من أجل وقف الأعمال العدائية التي كانت تقوم بها البندقية ضد ملك قبرس بطرس الأول لوزينان وضد الصليبيين ، وكذلك من أجل كبح جماح رغبتها القوية في إعادة المفاوضات مع القاهرة لإعادة التجارة فيما بينهما (٥١) ، فقد قام البابا بتحذيرها من مصالحة السلطان المملوكي السلطان شعبان في ٢٥ يناير عام ١٣٦٦م ، لكن تحذيره لها وصل بعد فوات الأوان ، حيث أنها قد أرسلت إليه تشكره علي اتصاله بها وتخبره بأن رسوليها بطرس سورانتو Peter Soranto وفرانتسكيو بيمبو Frantaskuo Bembo في

طريقهما إلي القاهرة للتفاهم في أمر الصلح مع المماليك. وبذا لم تكن تحذيرات البابا كافية لرد البندقية عن رغبتها الجامحة في عقد الصلح مع المماليك ، وعبثاً حاول رسلها الذين بعثتهم إلي البابا أوربان الخامس في أفينيون- بعد توجيه المبعوثين الآخرين إلي القاهرة - أن يكسبوا عطفه وتأييده ، ولمسوا منه ضرورة التكاتف مع ملك قبرس في مشروعاته الصليبية [٥٢].

بيد أن البابا أوربان الخامس رفض الأقتراح الذي تقدم به رسل البندقية إليه ، ووصل في مشروعاته الصليبية إلي حد إعلان بطلان كل إتفاق يصل إليه المبعوثان البندقيان - سورانتو وبيمبو- مع سلطان مصر ، ومع ذلك لم تسحب البندقية سفيريها من القاهرة علي الرغم من فشل مهمة هذين السفيرين البندقيين في القاهرة ، لذا فقد غادر البنادقة القاهرة في ١٣ مايو عام ١٣٦٦م ، وتوجهوا نحو قبرس لإقناع ملكها بطرس الأول لوزينان بوقف أعماله العدائية ضد المماليك ، وقد نجح البنادقة في هذا الأمر وأقنعوا بطرس الأول لوزينان بالدخول في مفاوضات صلح مع السلطان شعبان [٥٣].

خلاصة القول ، فقد ظلت البندقية وجنوة تقومان بدور الوسيط بين القبارسة والسلطان المملوكي حتي تم لهم ذلك أخيراً بعقد معاهدة صلح بين الطرفين في شهر ديسمبرعام ١٣٧٠م ، فبدأت التجارة تعود إلي ما كانت عليه بين قبرس والبندقية وجنوة من ناحية ، ومصر والشام من ناحية أخري وأخذت سفن التجار الأوروبيين تفد إلي الإسكندرية بكثرة [٥٤]

وقد ظل الوضع علي ما هو عليه إلي أن جاء البابا جريجوري الحادي عشر GregoryXI (١٣٧٠-١٣٧٥م) - آخر بابوات أفينيون - وأقتنع في النهاية بالأمر الواقع ألا وهو أن استمرار سيطرة المماليك علي الأراضي المقدسة بات شيئاً حتمياً ولوقت طويل لذا قفد أقلع عن الحروب الصليبية ضد المماليك [٥٥]

الخاتمة

يتجلي من استعراض وتحليل المادة العلمية الواردة خلال ثنايا البحث النتائج التالية :-

بذل البنادقة أقصي جهدهم لمنع الغرب الأوروبي من القيام بحملات صليبية جديدة علي سلطنة المماليك في مصر والشام ، خاصة بعد حملة بطرس الأول لوزينان ملك قبرس علي الإسكندرية ،لأن البنادقة كانت تربطهم بسلاطين المماليك علاقات تجارية وطيدة ، وأن قيام أي عمل صليبي ضد المماليك يعني الإجهاز علي تلك العلاقات التجارية .

حاول بابوت أفينيون منع المدن الإيطالية لتجارية ، وبصفة خاصة البندقية ، من المتاجرة مع المماليك أكثر من مرة ، لكنهم أخفقوا في ذلك ، وفي النهاية انصاعوا لرغبات البنادقة في المتاجرة مع سلطنة المماليك ، لا سيما وأن البندقية وغيرها كانت قائمة علي التجارة ، فمنع التجارة مع المماليك معناه تدمير البندقية وكان البابوات يريدون بقاء هذه الجمهورية مزدهرة وذلك لمساعدة الصليبيين في العبور إلي الشرق من أجل استرداد بيت المقدس .

لم يكن هدف بطرس الأول لوزينان ملك قبرس تملك مصر أو الإسكندرية لأنه يعلم أن القبارسة مهما بلغت درجة انتصارهم في الإسكندرية، ومهما حققوا من مكاسب فإنهم لن يستطيعوا الصمود أمام العساكر المصرية ، وإنما أستهدف من ذلك إرهاب سلاطين المماليك وإشعارهم بالخزي والعار أمام الرأي العام الإسلامي ، وإضعاف هيبة مصر في الداخل والخارج ، وبث روح الهزيمة في قلوب المسلمين ، وممارسة نوع من الضغط علي حكام دولة المماليك عن طريق المساومة بالأسري الذين شحنوا بهم سفنهم إلي قبرس، كما أن من أهدافهم الإطاحة بالإقتصاد المملوكي بنهب السلع والبضائع المكدسة بالثغر وبإيقاع الفتنة بين المماليك و البنادقة .

الهوامش

(١) Atiya (A.S): The Crusades in the later Middle Ages London, 1938, P.48.أنظر
أيضا : محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ، ١٩٤٧م ، ص٢٤٤.

(٢) Michaud(M): Histoire des Croisades.,T.3, Paris,1867,P.341.

(٣) نشأت الفكرة الأولي لجماعات الرهبان الفرسان الأسبتارية عام ١٠٧٠م/٤٦٣هـ عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفي Amalphe الإيطالية في بيت المقدس طائفة دينية كانت مهمتها الأولي الأهتمام بمرضي حجاج بيت المقدس ورعايتهم ، وقام بالخدمة فيها هيئة منظمة من الرهبان يرأسها راهب يدعي جيرارد Gerard أكتسب فيما بعد لقب "حامي فقراء المسيح"،كما أطلق علي هذه الجماعة أسم فرسان المستشفي Hospitallers التي حرفته اللغة العربية إلي الأسبتارية ، ولم تلبث هذه الجماعة أن أنضمت تحت لواء النظام الديري البندكتي التابع لغرب أوروبا وصاروا يتبعون البابا في روما Rome تبعية مباشرة . أنظر: نبيلة إبراهيم مقامي : فرق الفرسان الرهبان في بلاد الشام،رسالة ماجستير،آداب القاهرة ، ١٩٧٥م،ص ٩٠.

(٤) سامي سلطان سعد:الأسبتارية في رودس (١٣١٠-١٥٢٢م) ، رسالة دكتوراه،آداب القاهرة ، ١٩٧٥ م، ص ٣٥١.

(٥) تأسست هذه الهيئة الدينية بعد أن أستقر الصليبيون بالشام .وكانت مهمتها حماية طريق الحجاج ومعبد سليمان ، ويرجع الفضل في وضع أساس ونظم تلك الجماعة إلي أثنين من الفرسان هما :هيو دي باين Haygo de Payns وجودفري دي سانت أومر Geoffrey de St .Omar يساندهما مجموعتين من الفرنسيين والفلمنك الذين حصلوا علي تصريح في عام١١١٨م/ ٥١٢هـ من بطريرك بيت المقدس والملك بلدوين الثاني بإنشاء هذه الجماعة وأفرد لها جناحاً في قصره . أنظر : نبيلة إبراهيم مقامي :مرجع سابق ، ص١٦.

(٦) سامي سعد: مرجع سابق ، ص٣٥١. أنظر أيضاً :
Cf :Joseph Petit :Memoire de Foulques de Villaret sur la Croisade,dans,B.E.CH., T.LX.,1899.

(٧) Michaud:Op.Cit.,T.3,P.350.; Cf :Schien (S.):Philip IV and the Crusades, Cardiff , 1985 .

(٨) Luttre (1306-1421),in, (A.T): the Hospitallers at Rhodes ,in, Setton: A history of Crusades,V.3,Pp.285-286.

وأنظر أيضا:عصام محمد شبارو: السلاطين المماليك في المشرق والمغرب ، دورهم السياسي والحضاري ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص ٨٩.

(٩) Mansi(J.D):Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collection,Rome,1961,P.369.;Cf: Muller(E.): Das Konzil von Vienne(1311- 1312), Munster,1934.

(١٠) سامي سلطان سعد : مرجع سابق ، ص ٣٥٨.أنظر أيضاً :
Cf :Housley(N.):The later Crusades (1274-1580),Oxford,1982,P.29.

(١١) سامي سعد : نفسه ، ص ص ٣٥٩-٣٦٠.
Cf: Atiya: Op.Cit. , P.58.

(١٢) سامي سعد : نفسه ، ص ٣٦٠. أنظر أيضاً : Cf:Housley:Op.Cit.,P.

(١٣) Martin(H) : Histoire de France ,T.IV, Paris, 1861,P.499.Cf: Housley (N): The Avignon papacy and the Crusades (1305-1378) ,London,1986,P.14.

(١٤) **Michaud:Op.Cit.,T.3,P.350.,Cf:Housley: The Avignon** Papacy .,P.17.

(١٥) Michaud: Loc. Cit

(١٦) سامي سعد : مرجع سابق ، ص ٣٦١.

(١٧) Michaud:Op.Cit., T.3,P.352

أنظر كذلك : سامي سعد : نفسه ، ص ٣٦٣.

(١٨) سامي سعد : مرجع سابق ، ص ٣٦٣.

(١٩) Housley : The later Crusades., Pp.32-33

(٢٠) سامي سعد : نفسه ، ص ٣٦٦.أنظر أيضاً :
Cf: Housley :The Avignon papacy., P.23.

(٢١) إيلاف عاصم مصطفي : دور البابوية والقرصنة في شل حركة التجارة لشرقية في البحر المتوسط ١٢٩١-١٤٩٨م ، الجامعة المستنصرية / كلية التربية الأساسية ، عدد ٧٣ ، عام ٢٠١٢م ، ص٢٧٤.

(٢٢) -Lane-Poole (S):A history of Egypt in the Middle Age ., London 1936,P.310
أنظر أيضاً : مني إبراهيم عبد الرحمن : السفارات الأجنبية في مصر علي عهد سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير ، آداب القاهرة ، عام ١٩٧٥م ، ص ٩.

(٢٣) Martin:Op.Cit.,T.IV,P.562.; Cf:Viard(J):Les projects de Croisades de Philippe VI de Valois, dans,

(B.E.Ch).,T.XCVII,1936,Pp.305-316.;Cf:Setton(K.M): A history of the Crusades,Vol.3,Wisconsin,1975,P.356.

(٢٤) Lavisse (E) : Histoire de France , T. 4 , Part. 1, Paris, 1954, P.11.

(٢٥) Housley :The Avignon papacy., Pp.23-24.

(٢٦) سامي سعد : مرجع سابق ، ص ٣٦٨.

(٢٧) Atiya : Op.Cit.,Pp.112-113.;Cf:Setton : Op.Cit .,V.3,P.51.

أنظر أيضاً : سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ، ٢٠٠٢م، ص ١٣٦ .وكذلك : سامي سعد: نفسه ، ص ٣٦٩.

(٢٨) Atiya : Op.Cit., P.113.;Cf :Laiou (A.): Marino Sanudo Torsello, Byzantium and the Turks: the Back- ground to the anti-Turkish (1332- 1334) ,in, **Speculum**, Vol. XLV, London, 1970, P. 388.

(٢٩) Atiya : Op.Cit., P.113.,Cf: Lavisse : Op.Cit.,T.4.Part.1 , P.12.

أنظر أيضاً : سامي سعد : نفسه ، ص ٣٧٠.

(٣٠) Atiya : Op.Cit., Pp.330-331.; Cf: Hill(G):A history of Cyprus ,V.2, Cambridge, 1948,P.325.

وأنظر أيضاً : رانسيمان (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣، ترجمة / السيد الباز العريني ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص ٧٣٩.

(٣١) Machaut (G): La Prise d Alexandrie , ed. Mas-Latrie, Geneve, 1877, Pp.11- 12.;Cf: Baluze (S): Vitae Paparum Avenionensium ,T.I,Paris,1914,P.352.

(٣٢) كان البابا أوربان الخامس قد عين بيير دي توماس نائباً بابوياً للحملة الصليبية علي أثر وفاة الكاردينال تاليران دي بيرورد في ٣٠ يونيه عام ١٣٦٤م . أنظر :
-Machaut : Op.Cit., P.23.; Cf: Hill:Op.Cit.,V.2,P.325.

(٣٣) Atiya : Op.Cit.,P.337.

(٣٤) Raynaldi(B.): Annales Ecclesiastici., ed. by : AB .Augustino Theiner et Bari- Ducis.,Paris,1870;ad ann.1363,Nos.14-15.

(٣٥) Raynaldi: Ibid.,Nos.16-17

(٣٦) Raynaldi: ad ann.1363.,No.18. Cf: Jorga (N.): Philippe de Mezieres (1327-1405), Paris, 1896, P.170

أنظر أيضاً : سهير محمد نعينع :الحروب الصليبية المتأخرة حملة بطرس الأول لوسينان الصليبية علي الإسكندرية ١٣٦٥م/ ٧٦٧هـ ، إسكندرية، ٢٠٠٢م ، ص ١١٨.

(٣٧) De Lanouvell (E) : Le Bienheureux Urbain V, Paris,1928,P.211(

(٣٨) De Lanouvell :Op .Cit., P.213.

(٣٩) Ibid.,P.211.Cf: Atiya: Op.Cit.,P.338 .

(٤٠) De Lanouvell :Op .Cit. ,P.211.;Cf: Atiya: Op.Cit., P.338.
أنظر كذلك : سهير محمد نعينع : مرجع سابق ، ص ١١٩.

(٤١) Atiya: Op.Cit., P.339.
أنظر أيضاً : سهير محمد نعينع : مرجع سابق ، ص ١١٩.

(٤٢) Jorga: (N):Philippe de Mezieres(1327- 1405), Paris,1896.,P.205.
Cf: Atiya: Op.Cit ., P.339.

(٤٣) النويري السكندري : الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية ، مخطط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٤٩، تاريخ ، ص ص ٣٢٦- ٣٣٥.

(٤٤) Hill:Op.Cit.,V.2, P.334.
أنظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٦، ص ٢٧٦

(٤٥) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٧٠.

(٤٦) Jorga: Op.Cit.,Pp.337-338.

(٤٧) Jorga: Op.Cit.,P.338, Cf: De Lanouvell: Op.Cit, Pp.226 -227.

(٤٨) Jorga: Op.Cit.,P.339 .

(٤٩) Setton : Op.Cit .,V.3,P.76.

(٥٠) Michaud : Op.Cit.,T.3,Pp.364-365.;Cf:Hill:Op.Cit.,V.2,P.336.

(٥١) De Lanouvell: Op.Cit., P.227; Cf: Hill:Op.Cit.,V.2,P.337 .

(٥٢) عفاف سيد صبره : العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام (١١٠٠- ١٤٠٠م) ، دار النهضة العربية للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ١٠٥

(٥٣) Atiya : Op.Cit.,P.371.;Cf: Hill: Op.Cit.,V.2,Pp.337-341.
أنظر يضاً:عفاف سيد صبره : نفسه والصفحة .
وللمزيد من التفاصيل عن غزوات بطرس الأول لوزينان ملك قبرس علي طرابلس راجع : سعيد عاشور:قبرس والحروب الصليبية ، ص ص ٧٢- ٧٨.

(٥٤) De Lanouvell: Op.Cit.,P.234.Cf: Setton: Op.Cit. .,V.3,P.44.

(٥٥) Housley: The ater Crusades.,Pp.41-42.